

فعمرها يكاد لا يتجاوز السبعين عاما في حين أن الأدب من أقدم الفنون ، فلدينا نصوص أدبية يزيد عمرها على الأربعين قرنا ، فضلا عن المحاولات الشفاهية التي سبقتها ولم تصل إلينا . لذلك كانت للأدب تقاليده الفنية الراسخة ، ومقاييسه الجمالية المصطلح عليها ، في حين أن السينما ما زالت تفتقر إلى مثل هذه التقاليد والمقاييس . ولعل غلبة العنصر الصناعي على السينما وما يترتب عليه من قيم تجارية سوقية هو السبب الرئيسي لتخلفها الفني والفكري ، ونفور عدد غير قليل من كبار الأدباء والمفكرين عنها ، فالمنتج الذي يملك وسائل الإنتاج السينمائي ويقوم بتمويله ، ومن ثم يضع في اعتباره أولا وقبل كل شيء متطلبات السوق ، ورغبات الجماهير الضخمة ومستوى فهمها ، الذي اصطلح على أنه لا يزيد على مستوى صبي مراهق في الرابعة عشرة من عمره ! عقلية القطيع (2) ومن هنا كان نفور معظم منتجي السينما على كل ما يتصل بالثقافة والفن الأصيل ، وحرصهم على حشد أفلامهم بكل أنواع التسلية والمثيرات ، واللقطات الخليعة ، التي ترضي فضول الجماهير العريضة في كل أنحاء العالم ، وتحرك غرائزها ولا تتطلب منها جهدا فكريا من أي نوع ، وتلهيها عن مشاكل حياتها الواقعية ، والمتخللة منها بصفة أخص ، وبين الشباب بصورة أوضح . بل يوجهون إليها أقصى النقد ، ويحذرون من أخطارها على الثقافة والحضارة بعد أن لاحظوا عزوف الجماهير عن القراءة الجادة النافعة ، وإقبالها الشديد على مشاهدة السينما والتلفاز والاستماع إلى المذياع ، وكلها لا تتطلب جهدا كبيرا في متابعتها ، وقلّ أن تقدم زادا ثقافيا حقيقيا . ويرى هؤلاء المفكرون أن البشرية مهددة بكارثة كبرى تتمثل في إعراض الجماهير عن الكتاب بعد أن أخذت تشبع حاجتها إلى المعرفة والتسلية عن طريق السينما والمذياع والتلفاز . ويرون أن الرجل المتوسط لم يعد يجد متسعا من الوقت ، ولا مالا كافيا بل ولا عزما مثابرا ليرضي حاجاته الروحية ، فقدرتة على الانتباه والاستطلاع والفراغ تستغرقها اليوم آلات قوية الأثر هي التلفاز والمذياع والسينما ، حيث تختلط الأخبار بالمعارف والتسلية بالعلم ، فتسهم في تكوين شخصية الإنسان المعاصر في نفس الوقت الذي تسليه فيه . وعندهم أن هذه الآلات لا يمكن أن تقدم ثقافة خصبة لسببين : عقلية القطيع (3) أولهما : أن كل ثقافة حقيقية هي ” اختيار ” و ” مجهود ” ، وأنت لا تختار ما تسمعه في المذياع ولا ما تراه في السينما أو التلفاز ، فلا بد لك من معاودة قراءتها لتكتشف معانيها الدفينة ، وتفكر فيها ، فتستوحي منها آراء جديدة تخصب نفسك وتوسع آفاق المعرفة أمامك ، وكل هذا مستحيل وأنت تستمع إلى المذياع الذي يتدفق حاملا إليك أخلاطا من كل شيء أو أنت تشاهد فيلما سينمائيا أو تلفزيونيا بصوره الخاطفة المتلاحقة التي لا تتوقف أبدا . أما ثاني الأسباب : فهو أن هذه الوسائل الآلية العامة ستنتهي إلى قتل الروح الفردية في البشر ، لأن كل الناس يسمعون نفس الأحاديث بالمذياع ويشاهدون نفس الأفلام ، فينتهي بهم الأمر إلى أن يصبحوا نسخا متشابهة لا أصالة فيها ، حتى لتصبح عقليتهم أقرب لعقلية القطيع الذي يسهل قياده .